

حميد ناصر الجلاوي

اغنية للماء اغنية للانسان

عيني يا عيني يا وطني
أتحامل ، هذا الفجر على جرحي واجيء
في وجهي ارضك مثخنة واجيء
— احمد دحبور

شعر (عبدالله الفاضل) انهم سيواجهونه بالتهمة ، سيفولون
له :
— نحن في حل عنك .

قلبه ينسحق تحت هذا الهاجس الرهيب . تلمس جسده فوجد
البثور حقيقة ، دماغ صغير وحمل ترحف على جسده بطيئة وتلا
كيانه . انطرح على فراشه على امل ان يقهر هذه المشاعر بلحظة عافية
تمسح من كيانه كل هذي العذابات التي تفجرت مرة واحدة .

تسامل مع نفسه « اين صهوة الجواد من هذه الضجة الذليلة
يا عبد الله الفاضل ؟ » الريح خارج الخيمة تنكس الرمال وتعصف
بقماش الخيمة وتهز العبال ، احس بها نجار بوجهه ، احس وكأنه
ينام ، يغفو لحظة واحدة فيطمئن هذا الجسد الذي سلمه الى
العذاب .

دخل البدو وجلسوا متهيئين عند باب الخيمة ، اخذ يحدق الى
عيونهم المرعوبة ، رآهم يقظون انفاسهم دونه ، ادار بصره فيهم
واسبل جفنيه ، قال في نفسه :

« — انهم مغارقوك يا عبدالله الفاضل »

« مغارقوك ! » قالها مع نفسه ، اراد ان يطهرها لكنها تطفو الى
تفكيره جلية ، ولماذا يطهرها وهم ينظرون اليه نظرات مشفقة ؟
حدث نفسه « استقيث بهم ؟ استقيث . واخذح على ركبتي

لو حدث ذلك ! اترضى يا عبد الله الفاضل ؟ »

عيونهم المشفقة تتلصص عليه ، قال له بعضهم :

— نحن ذاهبون يا عبدالله الفاضل .

— ذاهبون ؟!

قالها بحزن .

— اعرف انكم ذاهبون ! لا ضمير ، ذاهبون .

— الى الغابور .

ثم ابتلعت الصحراء خطواتهم خارج الخيمة ، وكلبه عند الباب
يشن ، ينكسر انينه وعبدالله الفاضل يود لو يقوم ويهز الكلب، ويقول
له : « لماذا تن ؟ »

عندما اطل عبدالله الفاضل من باب الخيمة كان البدو قد رحلوا
منذ زمن بعيد . قال مع نفسه « هل نمت طيلة هذه الفترة ام ان
الحمى ابتلعتني كلية » ونظر بعيني كلبه وقال :
— اين كنت طيلة هذا الوقت يا شير ؟

الدمع ينحس والالئم يتقهقر ، شد على اسنانه ، على روجه ، استعرض الصحراء بعينيه الملتئتين بالحصى والعذاب .
الصحراء تمتد ، رآها تمتد الى الامام وقلبه مقع امامه ينظر الى الصحراء ، قال له :
- اراك تتذكر يا شير !

وهو الاخر يرى خفاف الجمال الطرية الناعمة ، يراها تسمم الصحراء والرغاء يبرعم كالزهور البرية ، راي ماء الخابور يلمع تحت الشمس كالرايا ونبانات الجرف ترقص مع خلق الريح . احس بالنشوة ، هز كلبه ، صرخ مع الريح والصحراء : « هلي »
جر خطواته على الرمال المحترقة ، الخيمة المكبوة على وجهها في الرمل تبعد وقلبه ينبج ، يمشي امامه ، وينبج ، قال له :
- اين هم الان يا شير ؟

الكلب ينبج ، تهزه عواطف السفر الخفية ، وفقره سعادة ، اخذ يركض ، اطلق ساقيه مع الصحراء باتجاه الريح ثم عاد الى عبدالله الفاضل .

نظر عبدالله الفاضل الى عيني الكلب الفرحتين والشمس الملتهبة فوق راسيهما تطاردتهما ، تهبط عليهما كالسياط والعذاب المقدر والحصى تلعب داخل عبدالله الفاضل والرمل الرهيبه تحرق قدميه . « تذكر حصانه الادمم ، رآه يهز ذيله ويندق بحوافره على ضفاف الخابور والسرج المفضى ... » الرمل المحروق يدخل الى اصابمه فيكوي مشابكها ، يحس بحرارة الرمل والشمس تصعد الى راسه وتهزه ارتعاشة عنيفة ، امتدت يده الى القرية فسكب فطرتين في بلعومه اليابس الذي تملأه الرمال ، واراد ان يسكب من القرية في فم كلبه ، رآه يركض الى الامام ، احس براسه يدور فتوقف ونظر الى الشمس التي تفلقت في هيبته الى راسه كلسعة العقرب .

ليس فير الشمس فوق راسه والسمااء الجرداء . تلفت الى الخيمة « لم تعد هناك خيمة يا عبدالله الفاضل » والجدي الملمون يكر عليه ، بثورة تنفاهم ، تعضه بالاف الاسنان الصغيرة الموجمة .
ومع نفسه يود لو يعد البثور ويعد معها عذاباته الرهيبه ، راسه يدور ويندلق الماء من احشائه ، يتقيا امعاه ويسقط وتند منه صرخة كتمليها بها الصحراء .

- شير !!

الكلب يقعي عند راسه ، يضع قائمته الاماميتين عند الراس ، يجره ، يعوي ، فتعوي معه الصحراء ويستحيل عواؤه الى السم ممض وطيب الشمس يندلق على راسيهما ، يقوم الكلب ويجر عبدالله الفاضل من ثيابه ، يجره والجسد الطريح يلتصق بالصحراء ، الكلب يعوي ، يتلوى ، يستدير حول الجسد الخائر ويعاود العواء .

يسحب من ثيابه فيستجيب الجسد ، يرفع عبدالله الفاضل راسه وتلتقي نظراتهما الحزينة ، تند هن عبدالله الفاضل انثة :
- شير !

الكلب ينبج ، يتحشرج صوته ، يسمع عبدالله في تصاعيفه العذاب ، يتحامل ويقوم ، يود لو يبكي ، لماذا لا يبكي ؟ يحدق بعيني الكلب فيرى فيهما الحزن الرهيب ، يتوكا على عصاه ويحس بالرمل يتشبث بقدميه ، الرمل يثقل قدميه ، فيسحبهما ، يقول لنفسه :
« اتود ان تسقط على وجهك وتنتظر حنك يا عبدالله الفاضل ؟
- الماء .. الماء »

يتخيل الناس يسحبون في الخابور ، الناس الماعفون من بشور الجدي ، يمد اصابحه الى قفاه ، يتحسس بثور الجدي الناعمة الملتهبة ، يود لو ينضو ملبسه وينظر على الرمل ، يضر جسده بالرمل المحترق ، ويسحق عذابها ، يمسحها من جسده ، فيركض ، يركض حتى تنقطع انفاسه ، يسابق كلبه باتجاه الماء والناس ، يحس

بلفح الريح الساخنة والرمل تملأ فمه وانفه ، الرمال الحامية والمهاجرة عبر الريح والقاسية قسوة البثور التي يحمل .
يرى الصحراء لاول مرة بمثل هذه القسوة وفي نفسه يتساءل :
- لماذا كنت ذليلة وهينة قبل هذا اليوم ؟

وتدق باب ذاكرته صور اهله ، وهم يسحقون الصحراء وبدلونها ويطبعون على خد الرمل ، اثار القدم الادمية .
فتح فم كلبه وسكب فيه من القرية ، راه يتلمظ الماء ، كلبه ينبج ، قال له :

- لا تنبج ، فهي الصحراء لا تورثك الا العطش .
ارتفع نباحه واحس عبدالله الفاضل بتوجسات (شير) ينبج ووجهه باتجاه الريح . قال له :
- اظنك تسمع نبض الحياة .

راه يرفع رأسه الى السماء ، يرفع راسه وينبج ، يسمع صوت الطيور ويسمع ضرب الاجنحة القوية للهواء .

مع نفسه فرح عبدالله الفاضل ، انتفض وهزته الحياة ، احس بانه قريب من الحياة والوجوه الادمية ، ود لو تنعطف هذه الطيور الكبيرة القاسية وتسير امامه ويركض خلفها ، يركض خلفها حتى تنقطع انفاسه ، يركض ويقهر الحصى ، يتناسى الامها وعذابها ويركض خلف الطيور العنيفة السائرة باتجاه الماء والبشر والامان .

الطيور تظلل راس عبدالله الفاضل ، يراها كبيرة قاسية والمخالب تندفق من الاصابع ، تشرع كالخنجر ، يحس بالرعب . قال مع نفسه :

« هو الجدي اللعين ، يدعوا ، يتربع صامتا على جسدي ويستلدم الخصوم ، الخصوم يقدمون نحوي ، الصقور هذه المرة » .
والرمل تشوي قدميه وتملا ما بين جسده والسياب والشمس القاسية الرهيبه تحرقه ، يرى الصقور العنيفة تدور فوق راسه ثم تنفض كالصاعقة ، واحدا واحدا ، غطي راسه بالعباءة ، كورها هلي راسه واخذ يهش بعصاه ويحس بوقع المناقير الحادة كالصنابير على هامته . تنفض ثم تندفع وينفض طير آخر .
« ايه يا عبدالله الفاضل ، الصقور هذه المرة !! »

الريح ، الصحراء ، الشمس ، المطش ، العطش للوجوه الادمية « والصقور تنفض على (شير) تلدغه بالرأس ونشب المخالب بجسد الكلب فيعوي ، يتلوى من الالئم ويعوي ، يقف على قائمته الخلفيتين ويخمش الصقور ، يعضها وعصا عبدالله الفاضل تنفض على الصقور الطامعة بالكلب . الريش تدروه الريح ودماء الكلب تنزف ودماء عبدالله الفاضل تنزف ، يختلط الدم بالدم بالشمس والريح والالئم .

يود عبدالله الفاضل لو يغني الالئم ، يطلق صوته فينادي امعاه التي يرتع فيها الحزن والترقب .

والصقور تدور دورتها اليانسة وتنفض بمجموعها ، تنفض عليه هذه المرة ، يطرح بيديه في الهواد الساخن ويرى خياله يستدير على الرمل صغيرا مكوما بين قدميه ويكاد خيال الكلب يلتصق ببطنه ، يهش بالعصا والصقور تخنق الهواد ، تلمحه ، يعوي الكلب ، يندفع راكضا والصقور تفك حصارها فوق راس عبدالله الفاضل ، تطير وراء الكلب ، تحيطه ، وتنشب معركة ضارية بين المخالب البربرية والكلب المنصب السابح في بحر الصحراء الساخن يسن ويخمش باظافره . عبدالله الفاضل تطحنه الذلة والالئم ، يرى كلبه تتنازعه مغالب الصقور وقدماه متعبتان ، يصرخ بنفسه :

« اين منك عبدالله الفاضل اليوم ؟! تحرك ، تحرك » .
لكانه يرى اهله يضحكون منه ، يزفون فجأة وتملا وجوههم الصحراء ، الوجوه السمير التي لوحتها شمس الصحراء والرمل والعطش .

« كاه .. كاه .. كاه » ، الضحك يملأ الصحراء ، الضحك المكيء بالشمامسة ، يحسمهم يقولون في انفسهم - نحن الذين نفخر لا انست » .

- عبدالله الفاضل .. لا يقدر على حماية كلبه .
- لا يقدر !
- لا يقدر !
- لا يقدر !

الاصوات تزدهم وقدماه تجرانه ، اصوات البدو ووجوههم تملأ الصحراء ، تسمت به . يتحشرج الصوت في بلعومه ، يود لو يصرخ بالصحراء وبالنهاية المفجعة التي حلت به ، يصرخ :
- شير .. شير

والصقور تطارد شير الذي اندفع نحو عبدالله الفاضل تطارده الصقور والشمس والرياح المجنونة ، يضع رأسه بين ساقي عبدالله الفاضل ، يحرك عصاه بوجه الصقور فترتفع بوجه السماء .. يبكي عبدالله ، يبكي ، ينحني على الكلب المدمى ، يضع رأسه في حجره ويفتش عن الجروح ، يضع الرمل الساخن عليها فيجفل الكلب ، يتلملم تحت اصابع عبدالله المرتجفة المليئة بالحمى والجذري الرهيب .

يتكوم الرمل من فمه على الصحراء المحترقة والرمل يندلق من بين اصابعه على جسد الكلب ، يندلق كالماء ويحس بانه يشم الماء المعفر برائحة الاعشاب ، يحركه بين اصابعه فيصلصل كالحمى ، ينسكب كالقلادة على الارض ، في رأسه يدور الماء « ماء .. ماء .. ماء » وشير راكن يرسن ذراعيه يحس به ، يرتجف وعيناه تدوران بعيني عبدالله الفاضل ، تدور في السماء التي انقضت منها الطيور البربرية ، لم يعد يسمع غير نقيب الريح وصيلل الرمل ، يتمنى لو تهدأ الريح فيشبت عصاه ويتظلل بعاءته ويريح جسده الساخن المتعب ، الذي هزه الجذري والام الماض ويريح (شير) الذي لعبت به الرياح والصقور . تلفت ، مد اصابعه الى جبهته ، احس بنداوة الدم على الجبهة وانار المخالب .

الدم يلتصق بالاصبع كائر الحناء مختلطا بالرمل الساخن . وبحزن تذكر ايام الصيد ، رأى نفسه يعدو على حصانه والكلاب امامه ، الريح تمثت بكوفيته وملابسه تلعب بها الريح كالذواذب والقلب فرح يريد ان يطير خلف الطريدة ، الطيور الهاربة اللذيذة والرصاص يندلع خلفها ، الرصاص يطير خلفها والكلاب تعدو ، يرى الطيور الصديقة تهوي فتتقض عليها الكلاب وتحشرها بين الفكين آية بها والرمل تعفره دماء الطرائد ، استعاد ذاكرته ورأى مرة ثانية على اصابعه المجذورة . قال لنفسه :

- اي ذنب اقترفت ؟

والصوت ياتي من الداخل :

« مجذور .. مجذور »

قال مع نفسه « - اي ذنب ؟ انت تقول هذا يا عبدالله الفاضل . اما انت الذي تركت نواف وسرحان وغانم ، تذكرهم جيدا يا عبدالله الفاضل ... »

والكلب يعوي .. سمعه يعوي عواء غربا ، دعاه اليه .

- لماذا تعوي يا صديقي ؟

واحس بانه يكذب على نفسه ، يحس بالرغبة بالنحيب مثل (شير) ليفرق الحزن الذي طفحت به الروح ، الحزن البلوري ، دمة واحدة ارادها ترطب هجير العذاب الذي يكويه . يسمع كركرات اطفال يلعبون ، ينصت ، يسترق السمع :

- نقيب الصحراء !

ويجر قدميه يتبع (شير) . يحس بالجوع القاسي بعصره « يمدون السماط وتترادف صحون الثريد الفارق بالسمن والجداء مطروحة على ظهورها فوق اقوام الثريد في الصحون الكبيرة والوجوه

تلمظ ، تصبر وتريد ان يعوها عبدالله الفاضل ، يمد يده الى الثريد فيمدون ايديهم النخيفة ، يمد يده ، ينفضون على الجداء . يحس بمعدته تخور داخله ، تضطرب ، اراد ان يمد كفه للرمل ليملا الفم ، يسكت المعدة المجنونة ، يحس برأسه يعصف به الدوار ، ينكفيء ويتقي السقوط على الرمل بعصاه ، يفرزها به ويتصلب امامها .

يشعر عبدالله الفاضل بالوهن يدب الى اعضائه ويتملكه الشعور يدنو الموت « لحظة ويمد يده الدقيقة الى الصدر وينتزع القلب الراعش ، يعصره ويحيله الى رماد وتنكفيء يا عبدالله الفاضل على وجهك ، تعض الرمل الى الابد وتلتحم به » تننابه الهواجس فيتصلب ويمد بعصره مع الصحراء ، يحس باشواقه تقهر الشاعر المرعبة الخوانة ، يعصر جبهته بين اصابعه ويجر قدميه ، يتلع ريقه ، يمتص الرمل « رائحة الفهوة الدافئة تفوح ، تملأ الانف والمسذاق المر يملأ الفم ، اللذة المرة تنزل الى البلعوم ، يمتص الفنجان ويضعه على غطاء الدله الصغيرة الحنون » .

بود في هذه اللحظة لو ينجي (دلته) الصغيرة في الليالي الدامسة ، يظل قبالتها والنار متوجرة . يمد يده اليها فيسامرها ، ينام قربها ، يتدفأ بالذواق المر .

- اين هذا الرمل الوحشي من ذلك المذاق الحبيب والشمس تقف على رأسه يتحرك تحتها ، تطارد خطواتها الواهنة ، وكلية يتفرغ بالرمل الملتهب ، يحك البطن والظهر المزق بالرمل ، ينظر الى الكلب يرى في عينيه التصبر الرهيب ، يتذكر عبدالله الفاضل (شير) وهو صغير . قال لنفسه :

« لماذا اتذكر ذلك ؟ »

« شير وضعت له امه وراء الخيمة ، ظل يئن تلك الليلة وهي صامتة تلحسه . في الليل سمع الضجيج بعيدا عن الخيام ، خرج ، وجد الذئاب تنهش كلبته والدم مسفوح على الرمل . وجدته في الصباح و (شير) الاعمى الصغير يزحف على الرمل ويشن بحزن ... »
قال لكلبه :

- اعرف انك حزين .. حزين مثلي وتعذبك الاشواق والذكريات مثلي .

وادار بعصره بالصحراء والسماء العادية الجرداء فوقهما ، كاد ان لا يصدق وحدتهما تحت السماء العازية وفوق الصحراء الثائرة الرهيبة والشمس تلسعهما ، تجد متنفسا لترميمهما بالحجم « ليس ثمة ظلال ونحن وحيدان يا شير يا صديقي » .

اراد ان يقول له :

- اخي .. اخي

والدمع يبرعم في عينيه ، الدمع يسفل ماقيه وصوته يتهدى على الصحراء « احبابي ارحلوا للخابور وابعد : »

- اين هو الابعد يا عبدالله الفاضل ؟

يسأل نفسه :

- الجمال تسير بالهواذج والنسوة الصامتات والاطفال يكررون والرجال ساهمون ، يراهم ساهمين ويتهامسون ويتذكرون :

- اين هم البدو الان ؟

يراهم يطاردون الطيور الصحراوية وتتقض على مخيلته الصقور الوحشية في عرض الصحراء فيجفل ويرفع رأسه المتعب ، يرى السماء ، يحاول ان يخترق غورها ببصره .

تراوده الرغبة بان يصرخ :

- الهي .. الهي !

بصمت ، يحس بنداواته الداخلية تنزلق الى اعماقه ونسمات باردة تنعشه ثم تسفقه الرمال والرياح الساخنة .

اراد ان يتخيل حقيقة مسيرته هذه ، نظر الى نفسه :

- التتمة على الصفحة - ٧٥ -

اغنية للماء اغنية للانسان

تابع المنشور على الصفحة - 11 -

- اين انا سائر ؟

- انا وكلبي حقيقة في عرض الصحراء ؟

- اجب يا عبدالله الفاضل ، انت الذي تسير مع كلبك ام

انمسخت الى عذابات والام رهيبه .

سال نفسه وراودته صورة ايوب النبي .

- نبي الصحراء انت يا عبدالله الفاضل .

كلبه يعوي والاقدام تدب على الرمال « - بينك وبين ايوب دهر

يا عبدالله الفاضل .

« ايوب على فراشه مطروح والزوجة تروح وتجيء ، ترق الخبز

والماء وتمسح القروح اللثيمة والحمى ، الوجوه الادمية تظله :

- اي وجوه تظلك يا عبدالله الفاضل ؟

والزوجة الان في الهودج ، تبكي ، هي الان تنوح ، تصمت ،

تتذكر . ما جدوى ذلك ؟ بينك وبينها بحر الرمل والشمس والعطش

والجدري ، وتذكر مخدعه الزوجي والفراش الدافئ ورائحة الطيب

والدفء اللذيذ .

« - الدفء اللذيذ والعطر البدي الذي يوضع من الجدائل

الصحراء تشوي قدميه والريح تلعب بشيابه تنازعه عليها .

« يمد يده الى الجسد البض ، تلمسه الانفاس الانثوية اللذيذة

- ابي .. ابي

ظفله يدعوه من تحت الدثاسر ، يجلس ، يتنحنح ، يخرج من

الخيمة وينظر الى السماء ، الليل يمد جناحيه ، يرى النجوم تنبض

في السماء وتنبثق تباعا والنسائم الليلية الرطبة تملأ خياشيمه وتنعشه

ويسمع من بعيد عواء الثئاب الصحراوية وحركات الجمال الباركة حول

الخيام ويتشأب وينظر الى السماء .

الشمس الحادقة تلدغ عينيه وتتفلفل الى يافوخه والعطش يتصلب

في داخله كالحجر . كلبه يتلوى ، يضطرب ويجلس بين قدميه ،

يتوجع ، يقفي عبدالله الفاضل ويظلل كلبه بشيابه ، ويسمح على

رأسه ، احس به ساخنا كالحديد الحامي .. قال له :

- تشجع يا صديقي ، تشجع !

« كلبه يموت تشنج قوائمه ، يضطرب ويسقط على الرمل ،

- يسقط على الرمل ؟ » .

يتساءل عبدالله الفاضل ، اراد ان يطرد هذا الهاجس المزعج ،

تصور (شير) يسقط على الارض ويرفس الرمل رفستين ثم يهدم ،

الخوف يعصف به ، يندق اسفين في روحه والهاجس يكبر .

(شير) تحت ظلال عباءته يحرك رأسه المتعب .

- احقا تسقط في الصحراء ؟

الموت يكبر يملا صفحة السماء امامه ويسد دروب الرمل :

- لا .. لا .. لا ..

يصرخ عبدالله الفاضل بهز شير ، فيرفع الكلب رأسه وينظر

الى عيني صاحبه ، يظل عبدالله الفاضل يصرخ :

- لا .. لا .. لا !!

الكلب يقوم ، يتمطى وينظر بجديبة الى عيني صديقه ويلبس

انفه بلسانه الجاف المنقوع بالرمل .

يسكب عبدالله الفاضل الماء في فم الكلب ، يحس به يتسهم

وتجتاحه رعشة الفرح . يربط فم القرية ويمسد شعره ، تند من

عبدالله الفاضل هلوسة فرح صغيرة :

- صديقي .. صديقي

وقلبي يرقص ، يسبقه ، يريد ان يعبر لكلبه بمواطفه الظائمة الى

الاذان البشرية .

قال لكلبه :

- احذك ، احذك لا ضير في ذلك ، قم اولا وساحذك ،

اتذكر في هذه اللحظة قصة قديمة حدثت لكلينا ، اسمعني ارجوك ،

البندقية على كتفي ، وكلانا نمزح ، اردت ان تركض الى طرفه ،

شمنت رائحتها ، قلت لك « اصبر » ففضبت ومسح نفسي اردت ان

احشو جلدك بالرصاص ..

- من تكون ياشير ؟ يا ابن من اكلت الذئب امه ، يا صغير

يا اعمى .. »

وقفت وحركت ذبلك ، خرج الثعلب وقوست ظهره وانطلقت

والثعلب المسكين اراد ان يلبد ، رايت قوائمك تطير والثعلب يضعف

امامك ، انقضضت عليه وبرك امامك ، نظرت بعيني يومئذ اتذكر ! ربما

لا تذكر فالجوع امضك ، الجوع ، رهيب ، رهيب ليس لنا الا ان ناكل

الرمل ، والرمل ساخن والريح ساخنة ، قلت انك انقضضت عليه

ونظرت الي ، ضحكت بوجهك وذبحت الثعلب امامك فشخب الدم

ورفس الثعلب وانت تهز ذبلك والبندقية تهتز على كتفي ... »

والرمل يسفي عليهما والثئبان تمنحي مع الريح .

الكلب يخرج لسانه ، اللسان ينداق ويلهث جافا كقطعة الخشب

يراه عبدالله الفاضل ينزف عافية لحظة لحظة ، ويتحسس جسده

هو الاخر فيحضر الثئاب ويحس بروحه تسحق ويستحيل الى جربوع

صغير يقفز امام البؤ وهم يركضون خلفه ، صفارهم يركضون ،

يرمونه بالمصي والكبار يخفقونه بالنعال :

- جربوع .. جربوع .

صيححات الجوع البربرية تتابعه ، الكل يهرعون خلفه :

- جربوع .. ا

- كبير وله ذيل !

- له ارجل دسه !

ويحس بالعصي تنهال عليه فيزوغ ، يسكونه من اذانه فيهرب

والنسوة يمتنن انفسهن بالكه ، والكلاب تريد عظامه . يقوص عسد

الله الفاضل بجلده ، يختفي في حفرة الجسد الملب ويري الجدران

الشروخة بالجدري والنمل والدمامل والقيح والحمى .

يحس بان الجراب المعقود من فتحته ، وهو العاجز يتسلى

جدران هذا الجراب النتن ، صرخ في اعماقه :

- اريد ان اخرج ، اريد ان اخرج !!

نساؤه يتقهقر في داخله ، تبتلعه دهاليز النفس والجسد

الضائمين وسط الصحراء .

« عبدالله الفاضل انت جميل اجرب ضال وسط الصحراء كلما

يجتذبك الشرق تدفلك الريح ، تتقهقر ، اركض ان شئت او احفر

قبرك واضطجع . اتريد ان تموت بصمت مع نفسك ؟ » الكلب يعوي ،

صوته يبيس ، ينبع فينطلق صوته حادا حزينا ، يمدخله باتجاه

الريح ويطلق نباحه الموجه .

« تريد ان تسكنه .

- الا تكف عن النباح ؟

- لا يمكن ، من قال لك انه سيكف ؟

يصرخ عبدالله الفاضل ، يريد ان يسكت الكلب فيربح قلبه

الذي يعصره النباح ويطعنه كل لحظة . مع نفسه يقول : « الكلب ينكا

جرحي ، يستنزف عروقي دمها ، يرميني في ارض اقسى من هذه

الصحراء المجنونة » يحس به يوقظ الذكريات الحلوة والمررة والحزن

والامل والشوق والمضارب البدوية الحبيبة ووجوه الرجال الذين

يحبهم .

يتذكر وجوههم واحدا ، واحدا ، اللحي الصغيرة والشوارب والانوف

والضحكات الرجولية الرنانة والحداء والرباب .

« اه الرباب ! اعزف ، اعزف يا ابن اخي يا مشعن العبد محمد

وارخ لصوتك العنان ، عليك بالصنابا انها تداوي القلب وتجبر خاطر

البوي الذي تلب به الريح والرمال والظلمة « الكبير » والنساء يخرجن رؤوسهن من ابواب الخيام والعيون الحور تفتح بالحسبة ويضحكن ، والريح تفضح العطر الذي يضح الشمع الاتوي الحبيب .

« لا تبك ، لا تبك ، ارجوك لا تبك ! .. »

خلص خنجرك من قلبي ياثير ، اما لي حق الرفقة معك ؟ اما نجمننا الصحراء ؟

يكاد يحس به ينفلت من عقاله وتنفلت الاحزان الكثيفة من قلبه الصغير ، يتخيل عبدالله الفاضل قلب الكلب الذي يقاسمه رحلة العذاب ، يراه يطفح بالحنن .

« الرحلة آذته ، انطعت الالام والى الابد في قلبه الصفيير الدافئ بالحسبة للناس والخيام والجمال » صوت الكلب يجنح كمركب معطوب وسط البحر ، يعزف رويدا بيع تماما فيظل فاغرا فاه دون ان تحمل الريح ايما نامة من هذا الغم المفقود .
- اي صديقي اطبق فيك ، اطبق فيك .

واخذ عبدالله الفاضل يجار ، اطلق لنفسه العنان (ايسك يا عبدالله الفاضل ، يا حائل وزر الشيطان وصديد البشر) نواحه يصك الريح ويصل سمعه ويفرقه في بحر التموج . يحس بدفء النوع ، يفسل روحه العذبة وجسده العذب بالجدي والحمى والرمل وجهد الشمس الرهيب . يبسط راحته فيرى الدم التبيس على الاصابع والطيور الوحشية تتحرك داخل الدم اليايس ، تخفق الهواء وتصعد الى السماء وتنفق عليه وعلى الكلب ، يصيح بجزع :

- لا .. لا .. لا

يهوي على الكلب ويحميه بلراميه وينظر الى السماء الغالية العارية ينظر للشمس الواقفة فوق راسه ابدأ ويحس وكأنها خلقت لعذابه هو : « من غير الممكن ان تكون يا عبدالله الفاضل هدفا لهذه النار الرهيبة المعلقة بين راسك والسماء !؟ » وشعر برأسه يدور « هذه المرة يمتلكه جوفك بمرارة لم تهدها من قبل ، اردت ان تقف على قدميك ، فيسر ان مرارة الحنظل في احشائك عصفت بك ، فاستدرت ، استدرت كالرحى العنيفة ، غامت الدنيا ورايت كلبك يدور امامك والصحراء تدور مجنونة والريح والشمس والظلمة يتوحش داخلك والعذبة تدق ابواب الفصبة ، تلب لمبتها معك ..

- اه .. اه .. اه

تستدير تريد ان تثبت عصاك ، ترمش اصابعك ، ولم تطواعك عصاك فتلفت من بين اصابعك ، تحسول ان تجدها وانت تتخبط كاللبيحة وقلبك ينسحق ويخفق في صدرك ، ينهار جسده على الرمل ثم تسقط على وجهك ، يفرق وجهك في الرمل ، تكممك الرمال الحارة ، تحرق وجهك وتملا الغم اليايس كالحصاة .

نام عبدالله الفاضل على الرمل وجهه مدسوس تحته على الرمل والثياب تمصفها الريح الغضوب والشمس تقف فوق الجسد الطريح على الرمضاء ، استدار الكلب حول صديقه ، اخذ يشن يتشمم الرأس والساعدين المطوحين الى الجوانب والقدمان الماربان اللذان حرفتهما الشمس والرمال ساكنان .

* * *

تعانق عبدالله الفاضل مع الصحراء ، الشوق العارم ! يشدهما ، يمتزج ظمأهما فيلتصق صدره بالصحراء الجافة ، وانفاسه تهدهج ، يزفر روحه تحت الهجير والريح تلعب بثيابه ، تنازعه عليها . المباداة تنتزع من الكتفين ، تخسرج ويظل عبدالله الفاضل عاريا تحت الشمس .

في داخله تستعطب الرفيات ، النار تاتي من الصحراء تسرب الى بطنه واعضائه ، يحلم عبدالله الفاضل « بامتداد ظلال النخيل ، واحة من واحات الاحساء ، الللال الرحبة تمتد كأنهار هذبة والسعف

يلعب به النسيم ، الظل يمتد ويعمق وعبدالله الفاضل يفرق في نومه دليقة تحت نخلة ظليلة .

قمرية تفني ، يسمعها تفني فيفتح عينيه ، يجافي النجوم ويشاركها الفناء بروحه ، تشجيه فيتذكر المضارب ويطلق لصوته العنان : « هلي .. يا هلي ! » .

تصمت القمرية وتصمت هو الآخر ، يرى الاصى تنفض عليها ، يصرخ عبدالله الفاضل من اعماقه ، يقوم ويتسلق النخلة ، يمسك بالافصى ، يفتح شديفها وينتشل الحمامة ، الحمامة ميتة ، يضمها عبدالله الفاضل على الارض كالحزمة المبتلة والافصى تنظر اليه ، تصحك ضحكها يرن في دروب البساتين .

يصرخ عبدالله الفاضل :

- يا اهل الاحساء ، يا اهل القطيف ، يا ناس الصحراء .

صوته يخفت يشعر كمن يكم فمه بيد عنيفة والافصى تنضمم تستحيل الى حيوان خرافي يطلق ساقيه للريح ، يركض بانجسائه الصحراء .

يقوم عبدالله الفاضل ، يركض خلف الكائن الخرافي ، يشمر من اعماقه ان الحيوان الوحشي في دربه الى اطفاله ومضرب عشيرته . يحس بالجناحين ينبتان تحت ابطيه ، يطير وهو في السماء ينادي الكائن الوحشي ، يزقق به وسهام الكائن النارية ترميه ، يتصارعان ويستحيلان كلاهما الى رماد تفرزه الرياح وتثبت ذراته شجيرات صحراوية صغيرة ، يتوزع الى اشواق صغيرة ، للطيور الصحراوية الضعيفة .

الريح الساخنة تدرج عبادته والكلب ينفض عليها يجرها ويضعها بين قدمي عبدالله الفاضل الطريح على الرمضاء .

يطلق الكلب صوته ، فترن الصحراء مع استنقافته الرهيبة .

يقوم الكلب ويدور حول عبدالله الفاضل ، يعض اصابعه برفق ويحس به متخشبا يعوي كالمثكول ثم ينام عند قدميه .

« عبدالله الفاضل على جواده الادم في عرض الصحراء والبدو ورايه تدفعهم الحياة الى الماء والظلال . يرى جواده يتطلق والفلان تهرب والريح تعبت بشعر الجواد والركض ينفخ بهما العزيمة خلف الفلان الملعورة .

تخفي الفلان بفتنة ، فيصيب عبدالله الفاضل الخور والجواد يلوب تحته ، يجسد نفسه على قدميه في عرض الصحراء ، والرمل يكشر بوجهه ، تصحك الرمال ، تصرخ ووجه زوجته يبزغ ، قلبه ، يفسح ، تند منه فرحة :

- ثريا .. ثريا !!

مخدعهما يعبق بالدفا يراه من بعيد ويحس بيد تمنعه ، حاجز من العجز يمنعه ، يصرخ مستغيثا :

- هلي ، هلي ، اين انتم يا هلي !!

وجوههم تحتشد على صفحة الريح والسماء ، الوجوه التي لوحتها الشمس ، يجارون بوجه الكائن الخرافي الذي قتل الحمامة . يراهم يندفسون الى الماء ، يدفعون جهالهم والنسوة عاربان يركضن الى الماء ، تدور في راسه الدنيا ، يقول لنفسه قامت القيامة ، يركض وراء عشيرته ، يرى النساء العاربات والاجساد الطامئة الى الماء ، يصرخ عبدالله الفاضل . الجمال ترغي ، تركض مجنونة والزبد الفقوب على مشافرها وعيونها حجرية رهيبة ، رهاها عبدالله تسحق الاطفال ، يصرخ :

- لا .. لا .. لا

- ابني .. ابني

النسوة يرين اطفالهن ينسحقون تحت اخفاف الجمال ، يتشجنون ثم يغبطون بالقدمهم الصغيرة خبطتين ويموتون ، وحمام واحسات الاحساء يظل الاطفال الميتين ، يقف صبا بين الشمس وبينهم .

— اه ، يا حمام الاحساء !

يرى الكائن الخرافي الرهيب ، يمتشق عبدالله الفاضل سيفه
بوجه الكائن ، يضحك الكائن ، يزار بوجهه :
— يامسكين ، يا صعلوك .

والحمامات كهجمات الشجر فوق الاطفال والرجال ينقلون على
اغابهم ، تنعقهم كلاب رهيبة بوجه آدمية ، تفصلهم عن النسوة
العاريات ، يحس بانخزي ويرى الصحراء تنطوي على النهر وتردم
النساء ، يصرخ :

— ثريا .. ثريا

تستحيل استغاثاته الى بروق صغيرة يابسة حواليه »

كلبه (شير) يعوي والعباءة تحت فوائمه ، قلبه ينقطر ، يقوم
فيض عبدالله الفاضل من ديلة ساقه ، يسحبه من ثيابه ، يود الكلب
لو ينهره عبدالله الفاضل بدل هذه الضجعة الدليلة والشمس تنجح
للقرب ، يمد الكلب بوزه بين الرمل ووجه عبدالله الفاضل ، يتشم
وجهه ، يحس بانفاس صاحبه تلذعه .

يقي عند الرأس وينوح ، يستحيل صوته الى نواح رهيبة يقطر
دلب الصحراء (يظفي الصحراء العشب — ينظر عبدالله الفاضل فيمتد
العشب مع بصره .

المطر يبيل ثيابه ، يتساقط قطرات صغيرة ثم يندفق مزنة ،
والعشب يظفيه الماء ، يمسح قدميه بالعشب الندي ويشمر بطراوة
العشب تحت قدميه .

يطلق ساقيه للريح ، يركض فوق العشب الندي ، قلبه يدق ،
يدفعه الى الامام فوق العشب الندي اللذيذ ، يرى زهيرات بيضاء
ترضع العشب ، يضحك تحت المطر ، يفتح فمه للمطر ، تفتسل
اعماقه ورأسه وروحه بالمطر .

يرى الجداء الصغيرة على العشب والزهيرات البيضاء الصغيرة ،
تمتد يد رهيبة الى العشب فتمسحه وتمسح الجداء وتريد الصحراء
بالرمل الساخن ، تحرق وجهه وثيابه تستحيل الى صفائح حامية .
يركض والريح تطارده والثياب الساخنة تلتصق به ، تلتصق بالجلد
الاسمر الظامير يصرخ عبدالله الفاضل :

— لا . لا . لا . اريد الماء .. العشب ، الماء ، العشب . ينازعه
الظما اخر القطرات الندية التي استقرت في احشائه . يحس
بالسخونة رقيقة في اليد ثم تزحف رويدا ، تملأ كيانه ، ترتفع ،
يتحسس جسده ، يقول لزوجته :

— ثريا .. السخونة تحرق قلبي !

ينظر في عينيها الوديعتين والفرح بهلاهما ، تخرج من الخيمة
ويتحسس عبدالله الفاضل جسده ، تمد اصابعه على بشور صغيرة
فينتابه الفرع .. قال لنفسه :

— اهو الجسدري ؟؟

لقد حلت بك المصيبة يا عبدالله الفاضل ، راي نفسه ككلسب
اجرب تطارده المضارب والقرى ، يلهث والشتائم تتبعه وحجارة الصبيان
ودعاء الشر من النسوة .

البثور تزحف الى اصقاع بدنه فيرتعش تحت رهبة الخوف .
اصابعه ترقص ومفاصله تضطرب (كيف ؟ كيف تسمح لكل هذا
يا الهي)

يصرخ ويخنق ، استغاثاته من اعماقه تخرج ، وجوههم تطالعه
يدخلون واحدا واحدا كالقصابين الى الذبيحة ، ساكبينهم مشحودة
والوجوه القاسية الملامح الظائمة الى حكاية تحدد الحياة وتمسح
رخصة الرحيل ، تنحنوا ، قال اولهم :

— حكم الجندور العزل !

وانكمش عبدالله الفاضل ، تلقى اول خفقة من نعال حقير، عيناه
غارقتان بالحمى ، اراد ان يفضب ، ان يصرخ ، ان يملأ هذا الفم

بالتراب ، ياها شيه .

قالوا له :

— انا مفارقوك يا عبدالله الفاضل .

والصوت يرن في اذنيه :

— مفارقوك ، مفارقوك ، مفارقوك ..

والعشب تمسحه يد الكائن الخرافي وحمام الاحساء تقفيينه
وبين الشمس ، يسمع في حلمه صوت كلب رهيبي ينبع عليه فسي
البيستان والحمام تظير .

يتخطى عبدالله الفاضل ، يحس بالرمل يملأ فمه ووجهه ، يرفع
رأسه فيرى كلبه (شير) مقعيا عند رأسه والعباءة تحت قدميه ،
يسمعه ينوح :

— شير ، شير .

يصرخ برعب ، يسحب ساقيه المتعبتين ثم يقف وسط القروب
الحزين ، يلطم عبائه يثبتها على كتفيه ويسكب بقايا القربة في
فمه وفم الكلب ، يتخطى على الرمل الدافئ اللذيذ ، يمسح عينيه ،
يريد جاهدا ، ان يتذكر احلام الساعات التي مرت ، يرى كلبه
يهز ذيله بامتنان امامه والليل ينسحب رويدا فوقهما .

قدماه خفيفتان على الرمل ، يلفه صمت عميق ، ليس هناك من
صوت غير انسحاق الرمل تحت قدميه وفحيح ارجل كلبه .

نظر عبدالله الفاضل الى السماء ، راي النجوم الصغيرة تنبثق
رويدا كالزهيرات الصغيرة والنور ينبض في النجوم ، والريح تخفت ،
تستحيل الى نسيم بارد انضج جسده العذب ، احس بحيوية تنطق
الى جسده والادجاج تنسرب ، المفاصل تستعيد عنقوانها والحمى
تخمد . يقول في نفسه « لماذا لا تخمد بعد كل ذلك العذاب ، الحمى
تخمد ، تخمد .. »

نظر الى كلبه فراى هيكله يضؤل في الظلمة ، قل له :

— اين ذهبت طيلة نومي يا شير ؟

الكلب امامه يسير الهوني ، اراد عبدالله الفاضل ان يحدثه
وود لو تنحل عقدة لسانه فيفصح معه ، اراد ان يشتمكنوات صدره ،
ان يشركه احلامه المذبة ، ويحدثه عن وجع القلب والدلة .

نمت منه صرخة كالوحشة « شير ، شير ! »

« — لماذا لا يكون شير آدميا بلحم ودم ادمي » والصوت يدوي

في رأسه « شير .. شير » يمشي معه ، يحدثه :

(— بددت وحدتي ، منحنتني دهاء عائلة صغيرة ، انا وانت

يا شير تحت مسقف منزل الليل ، اريد ان تنجح ؟ ليس الان !
ليس الان ! ارجو له .

وعندما نصل الخابور ، نسيح سوية ، اغسل ادران الجسد وانظف
فروتك من الرمل بالماء اللذيذ السلسيل وابتنسي لسك بيتا
ونخرج سوية تطارد الطرائد في البراري ، اتسمني يا شير ! ربما
انت تفكر الان بصحبة اقرانك ، بنجاحهم ، انت مستوحش وحيد
مثلي في هذه الصحراء المترامية .. اه يا لك من مسكين ربطت
مصيرك بي ، انا اجرب ، اجرب !! اتعرف هذا ؟ ان اعرفه وانت
معافى ، ليس غير الصحبة تجمعا والموت والصحراء العادية) .

تبلورت في ذهن عبدالله الفاضل افكار غريبة مفزعة ، نظر الى السماء
وراي انبثاق النجوم في تابع دقيق وهي تنبض اصواها والقمر
يلوح من بعيد .

قدماه يتحسسان الرمل الدافئ والذي يبرد رويدا ، احس
بالحمى تداعب جسده من جديد وتلمس البثور في الصدر والوجه ،
احس بها كالحصى الصغيرة المؤلمة تحت الاقدام العارية .

صور الافاعي الصحراوية تراوده ، فزت بغتة الى رأسه ، امتد
الخوف الى اعماقه « لثغة واحدة وانطرح » ويتصور ذهاب عذاب
هذه الساعات الطويلة ، الرمل ، الريح والحمى والصقور والخيالات

البرصية .

(لا .. لا .. لا ارتضيها يا شير لا ارتضيها ويروح التصب المصني هذا هباء ..)

قدماء يجراه ، اوسع خطاه واستحال مشية الى ركض سد الابواب بوجه الخور واتعاب الحمى .

برى (الافاعي تلتف على الاقدام وتمتد الى الساعين والبطن والعنق ومنها تقف على الرأس منتصبة تنظر الى السماء ، الافاعي تنظر اليه تعهلق في عينيه وجسده ، تداعب البثور باجسادها اللدنة) يركض عبدالله الفاضل وقلبه يطلق ساقيه امامه ، يصرى عبدالله الفاضل (الافاعي تحيط بقلبه وتفرز انيابها بجسده) يصرخ :
- صديقي .. صديقي !!

ويحرك عصاه بعنف ، يريد ان يسقط على ظهر قلبه ليسحق الافاعي ، تنهال فيعوي الكلب من الالم ، تظل يد عبدالله الفاضل معلقة فوق ظهر الكلب العاوي من الظما والم الضربة القاسية ، يلتفت الكلب الى عبدالله الفاضل وينظر بعين غضوب ، يرى عبدالله الفاضل الشر في عيني الكلب ، يستيقظ من خيالاته المحومة .

يصرخ في ليل الصحراء العارضة :

- يا ناس يا بدو الصحراء ، اين انتم يا بدو الصحراء ؟ والحمى تشتد داخله وتنزف عينيه والدمامل تنسج خيوطها حول الجسد المتعب . يتحدث مع نفسه (ضربت الكلب ، الكلب حبيبي ، رفيق رحلتي .. اخي ! اخي !

- قاسمتني الظما يا شير .

- وقاسمتك العذاب والطرود .

- والطرود ! اي والله يا عبدالله الفاضل ، اعطاك يده يسوم غسلت العشيبة ايادها عنك .
- وضرينه ..)

سمع الكلب يئن وهو يطلع امامه ، اراد ان يعمله . قال في نفسه (هو حزين ومتالم من مسلكي معه) .

- الا تستطيع ان تملك عقلك يا عبدالله الفاضل ؟ (راه الكلب يركض ، كالمجنون امامه وعباءته متمسكة باحد كتفيه ، والسائسة ما يبينهما تبعد ، اطلق ساقيه للريح خلفه .

يسمع عبدالله الفاضل فحيح اقدامها وسط صمت الصحراء العميق وود لو يقني ، او تركته الحمى لغنى :

- هلك شالو على مكحول يا شير .

ذبولك ..

راهم بطوون الخيام يقاعون العمسد ويطوون الخيام وخيمته الصفيرة الممزولة ، قائمة ذليلة وهو ينظر بعينيه الى البدو وهم يربطون الخيام الى ظهور الجمال وهم يقيمون الهوداج للنساء . يرى زوجته تركب واولاده وهم ينوحون ، العشيبة تضرب جماله وهو ينظر من باب الخيمة نائم على فراش الذلة (اجر ب ، مجبور ، اجر ب) « اجرب » الصوت يملأ الصحراء (هو الكلام الحق يا عبدالله الفاضل) وصوته تحمله الصحراء ممثلا باحزان القلب العميقة المخلوطة بمرارة البكاء .
(.. على مكحول يا شير وذبولك عظام الخيل ..)

وتراب مكحول لا ينساه ، السفوح الخضراء والماء المتدفق ، يقولون ان سر العشيبة دفنوه في مكحول (نحب مكحول كما نحب نسوتنا ونحب اليه ، تركونا يا شير وذهبوا الى امنيتهم في مكحول والعشب الندي والطيور الصغيرة الحلوة) ، اراد ان يقني ففص بالدمع . مع الليل انفتحت بوابة احزانه ، اخذ يجهد فقال لنفسه .

- مم تبكي يا عبدالله الفاضل ، انظن انك تمنح نفسك التصبر؟ واحس وكأنه فصن صغير اقتلع من شجرة وارفة الظلال ، انزعوه ورمسوه في عرض الصحراء .

- انا الفصن الصغير الرمي في الصحراء والشجرة على سفح مكحول ، الريح تمذبني والرمل والظما واريد ان انمر ، ان تكون لي ظلال .

ضحك في سره ثم فاحت الضحكة ، اخذ يقهقه ، يحس بانضحك يمتد الى كيانه فيهمزه ..
كاه .. كاه .. كاه .. كاه ..

والكلب يجري امامه ، يركضان سوية والانتفاش تتسابق والحمى تنزف الراس ، يحس براسه يستحيل الى قطعة جامدة من نار رهيبة تصف بها الهواجس المجنونة ، تنقطع راسه كالبيخعة بسكاكين رقيقة والافاعي تركض امامه على الرمل ، تفتح على الرمل وذوات الاجراس يزحفن راقصات ، يسمع الاجراس تدق ، الافاعي ترقص والاجراس تملأ الصحراء ، تسد الابواب ، الكلب يركض ، يصرخ عبدالله الفاضل :

- ابني .. ابني ابن انت ، هلك شالو على مكحول يا شير ياسلوة ، يا ابني ، يا صديقي .

يركض والحمى تصف بسبه والعرق يبلس الجسد تحت الثياب المعفرة بالرمل ، يلتصق الرمل بالثياب بالبثور ، يحك عبدالله الفاضل البثور فترطب اصابعه بالقحج :

- اخ .. اخ !

يتالم ويركض ، يحس بيد تدفمه الى امام والكلب يركض كظلم صغير ويهد ساقيه الى امام .. الصحراء تستعيد نفسها وتمتد من جديد امامها ، والافاعي تتكالب ، يرى عبدالله الفاضل : « جبل مكحول مطلي بالافاعي الصفيرة تقدح بالسم والشر ولدونة الاجساد تنزلق عليها اخفاف الجمال على السفح ، يرى الجمال والناس يتزحلقون على نعومة اجساد الافاعي والجبل يقف مرة واحدة كاللارد ، ينتصب كالافى الكبيرة الهائلة وينهال على الجمال والتخيل والنساء ، يرى اكف العشيبة تمتد متدعة مستقيمة ، يد طفلة ويد زوجته ثريا وابدي الشيوخ المنعيسين » والعرق ينصب مختلطا بالرمل والتعب - يود لو ينهال بعصاه عليه ، يسكت الالم ، يعيده الى صوابه . يقول لنفسه :

(اه .. منك يا عبدالله الفاضل ، يا رجلا مملوا بالجسارة ، انت مجنون ، مجنون ، ما ضرك لو بقيت تحت خيمتك الصفيرة ما ضرك ؟ .. ستاتيك قافلة وتتوسلهم .. سياخذونك !

- تفو ! الا تستحي يا ؟ .. اود لو اسحق هذا الفم الفادر ..

- فادر ؟! اين تحملك قدامك .. الى اين ؟!) بذهنه المشوش يحاول عبدالله الفاضل ان يحسب المسافات التي قطعها ، والشمس يستعيدتها في ذهنه ، فيحس بلسمها في عينيه ورأسه ويحس بظم الرمل الزجاجي الساخن في فمه .

كلبه يعوي ، يسمعه يعوي عواد رهيبا :

- انه خائف .

ويتوقف خلف الكلب المنتصب ، يمد بصره وسط الظلمة ، يعاول ان يعيد عيادته الى كتفه ثانية ، يجلس على ركبته ويمد بصره والكلب يلحف بالعواد ثم يستحيل عواؤه الى نباح شرير هائج .

(ماذا تظن يا عبدالله الفاضل سيدهمك الان ؟)

ليس غير الضباع !! (هذا هين) ،

نباح الكلب يملأ الصحراء ، نباحه يمتد ويستحيل الى ايماء باقتراب الخطر :

(تصبر يا عبدالله الفاضل .. اصغ سمعك وافهم يا عبدالله ما انت فاعل بالموت الذي يتربص بك ؟)

كلبه ينبش الرمل ، يحثوه بقائمتيه ، تتصلب روح عبدالله الفاضل وهو واقف خلف قلبه ينظر بحذر الى امام .

(ربح الموت تهب عليك يا عبدالله الفاضل ، الصحراء تبصت سكانها اليك ، ما انت فاعل يا وحيد الصحراء والليل ؟)

يتحسس عصاه ، يحاول ان يباها او يندفع بها الى امام .
الدماء تصعد الى راسه ، ترتعش اعضاؤه والراس الساخنة تكبر ،
تتسع كالصحراء ، النباح يصك سمعه ، يقول في نفسه :
« الكلب يستفيث يا عبدالله الفاضل » .

وبثور الجدري يلسعها برد الصحراء والليل والدم يصعد
عنيفا وترتجف الفرائص .

يتفوس الكلب وينحن عبدالله الفاضل ، يمد بصره مع امتداد
الصحراء ، الاشباح تقترب ، يرى خطواتها الرصينة المرعبسة
تتقدم انيه :

« الذئب الصحراوي يا عبدالله الفاضل » يقول في نفسه
ويحرك عصاه ، الحمى تأخذه ، تطبق عليه ويستحيل برد الصحراء
الى حمى قاسية .

يسمع خشنشة المخالب على الرمل والزئير المخيف ينفث بوجهه ،
الكلب يتصلب في مكانه والنباح يتحشرج في بلعومه ، يقف الكلب بين
عبدالله الفاضل وبين الذئبين الصحراويين ، يقول لنفسه « ارفع
عصاك يا عبدالله الفاضل ، تحدث مع الكلب المهذب ، اسحق المخاوف
والذليلة ، مد يلك الى اعماقك ، اين هي ايام العز يا عبدالله الفاضل؟
البدو تركوك ، تفرقت في فيافي غريبة ، بالامس ركضوا خلفك ،
ذراعك تمتد واذرعهم خلفك ، اذرعهم خلفك ، يهجمون ! والبدو
النجديون يهربون امامهم » .

يلعب بعصاه والذئبان يهجمان على الكلب ، يتفاسمان راسه ،
وينشبان المخالب الوحشية والاسنان البربرية ، يسمع فيحجمها
كالخناجر تطمن قلبه وكلبه يعوي ، تمزقه المخالب ويعوي ، تهوي
عصا عبدالله الفاضل على الذئب ، يجار ، يقوس ظهره ويتعد عن
الكلب مطلقا زئيره الخائق يجمع الذئب هيكله وينقض على عبدالله
الفاضل ، يطعنه بصدرة ، يسقط عبدالله الفاضل على ظهره والذئب
متربع على الصدر ، المخالب تنفرز في الوجه والانياب تنفرب من
البلعوم ، يمد عبدالله اصابعه المحمومة المرتشمة الى عنق الذئب ،
يطبقهما ، يضغط فيسحب الذئب مخالبه من الوجه ، الفم ينفلتق
تحت ضغط الاصابع المحمومة . « تصلب .. تصلب يا عبدالله الفاضل ،
اضغط اصابعك بعنف ، بعيد عن الازل والمضارب والسيوف والعصي
والنداءات الشجاعة ، لو تستفيث لا تشق الصحراء عن ذراع اذيعه ،
او عن صوت حنون يفتق عليك الفرح المزوج بالطمأنينة .. اضغط
يا عبدالله الفاضل اصابعك .. اضغط !!!

تتراخي قوائم الذئب وصوته يحشرج ، يشعر عبدالله باصابعه
تتصلب وكان هناك من يشدها بعنف على عنق الذئب ، روحه تشق
عنان الفرح ، والفرح يستحيل في احشائه الى انتشاء وحشي رهيب ،
يطلق اصواتا رهيبية غريبة تحطم صمت الصحراء . يتقلب الذئب على
جنبه ويسحب عبدالله الفاضل جسده ، ينتفض كالطائر ويقف على
قدميه ، يمسك بعصاه وينهال على رأس الذئب .

يجار الذئب .

« اضرب .. اضرب يا عبدالله الفاضل ، يقول عبدالله لنفسه »

يحس بنشوة النصر والذئب الجندل تحطه الضربات القاسية .
عبدالله الفاضل يمتد مع عنق الليل الى الاعالي ، يشهر برأسه
يلامس النجوم المعلقة بين الليل والسماء (وحيدا يا عبدالله
الفاضل في هذه اللحظة كائن سقطت من السماء او انشقت عنك
الصحراء ، لا ام ، لا اب ، لا ولد ، لا وشائج قربي ، امك الصحراء
والرياح والليل البهيم) .

يرفع ذراعيه المتصبتين للمرة الاخيرة وتنهال العصا بكل احزان
القلب والفضب رهيب على رأس الذئب ، يجار الذئب ، يسكن
بالتباعد ، يتفائل الى اعماق عبدالله الفاضل .

يقول مع نفسه :

(تموت . ضربة اخيرة وتصفي الحساب يا ذئب الصحراء . غدا
ستشرق الشمس عليك ، منكفيا على الوجه ، تتام نومسي على الرمل
وتعبرك الريح) ،

انهالت عصاه للمرة الاخيرة على الراس بكل عناب الروح .
تشنج الذئب وانظر على الرمل . مسح عبدالله الفاضل العرق عن
وجهه ، لامس الرمل الملتصق بالوجه ، بالدم السائغ من الوجه وشعر
الذئب ملتصق باصابعه ووجهه والدم . يسمع كلبه يشن ، يعوي من
العراك والذئب يحارقه ، يندفع اليه بوحشية رهيبية بكل ظمسا
الصحراء وجوعها .

يلتفت اليه عبدالله الفاضل :

- حانت منيتك !

في نفسه يقول (يا لروحي العذبة الفارقة في نجيع الضنى) .
الكلب يناديه ، يستفيث بعواء مبجوح مخيف .

- تصبر يا شير .. تصبر ، الصحراء العودة تستنفر الشمس
والصقور والذئاب . في داخله يحس بانه يتحول الى كائن وحشي
رهيب ، الذئاب منحنه الوحشية ، يشمر وكان المخالب تبتق من
اصابعه المحمومة والعصا تلتقي بكفه ، يهزها ويوجع الذئب المتصعب
البربري على ظهره .

يعوي ويتنفص عن الكلب .. يتراجع ، يقف قبائلهم ، يفهمهم
صمت ليلي عميق ، ليس غير لهاث الذئب المتوجع والكلب الجريح
وانفاس عبدالله الفاضل المتهدجة .

ريح الصحراء الباردة تغمرهم ، تمسح الحمى عن رأس عبدالله
الفاضل . يتقدم متعبا مترنما ، يرفع عصاه ، يتوجس الذئب خيفة
فيرتد والكلب يقف ويطلق نباحه المشروخ ، خطوات عبدالله الفاضل
تتابع الذئب وعواء الكلب كالسياط يتابعه ، يطلق ساقبه للريح ،
يصرخ عبدالله بفرح وحشي :

- يا ذئب ، يا ذئب !

يركض وراء الذئب كالمسوس ، يحس بهاجس وحشي يدفعه .
يد خفية تدفعه ينسى الحمى والبثور النجسة المتصقصة بالجسد ،
ينظر خلفه ، يرى كلبه يطلع ، يتوقف عبدالله الفاضل يقترب من الكلب ،
يحس بنسمة باردة تمسح الجنون الذي ملا راسه بفتة ، ينحن على
رفيق سفره .

- شير ، شير .. اه يا صديقي . سافك الجريحة نفيروني ،
تذلني يا شير .

ويحس بالدمع يملا مآقيه .

مع نفسه يقول « تذلك الذئبا يا عبدالله الفاضل حتى استعدت
الذئاب على كليك .. اه يا ذئب الروح » . ينحن على ساقه ،
يحسها منسحقة تندلي كالخرقة والدم يلتصق بكفه ساخنا يملاه
الظمسا . ينضي عبدالله الفاضل بعاقته ويشقها ، يضمد ساق
كلبه الجريحة ويسمعه يشن مع حركة اصابعه والخرقة . يقول
مواسيا :

- تصبر يا صديقي تصبر ، هذا حال الدنيا .. يا شير ! يسمع
اصوات البدو تبعت خافتة من اعماقه ، نصت الى الاصوات الندية
بالرفقة تبعت من داخله رائقة ، يلتفت ، يمد بصره مع الليل ،
ليس فيسر امتداد الصحراء وهسيس ارجله وكلبه شير ، يقفان
وينصت عبدالله الفاضل لاصوات البدو في اعماقه .

يسمع صفار البدو يلعبون بالعصي وحوار ينادي امه .. « اه
يا رائحة الوبر الندي بالماء وندي الصباح » . يتشهم ريح الصحراء
الباردة ، تبرعم في اعماقه فرحة صغيرة دائمة والاصوات الحنونة
تنفتح في صدره كالزهيرات البرية التي ترعاها على اكناف السواقي ،
الاصوات تنجسد في اعماقه ، نفاذ الاغنام وماز يماهي وحصان يشق
سكون الليل بصهيله (يتخيل حصانه الادم) . يحدث عبدالله
الفاضل كلبه :

- اسمع الاصوات ياشير ؟ الاصوات الحبيبة اليك اسالك
بالصحبة والعذاب ، هل انفج صدرك لهذه الاصوات الحبيبة ؟ اعرف
انك نائم ، سافت الجريحة تعضك بالالم ، نصبر . عندما لا تصبر
يا شير فلن نلاقي الخابور ولا الماء والعشب والناس الذين يهشون
بوجودها فرحين بلفاء انسان غريب . اه يا روحي ، سينزلوننا
صيفين ، ساقول لهم .

- هذا كلبى انزلوه منزلة تليق به ! افول لهم :
« انه شير ! »

وبعد الخابور يبدأ الناس والماء والعشب .

برى عبدالله الفاضل النجوم تنظفي في السماء تباعا ، ينظر لها
ملياً ، يشد على اسنانه ، يقرس عصاه في الرمل ويلهلم عبائه
ثم يركض والكلب يضلغ خلفه والريح الباردة كلياقي الشتاء ، يحدث
نفسه :

(سنبزغ الشمس يا عبدالله الفاضل ، تصعد الى كبدالسماء
رويداً رويداً ، تصهرك وتزيد من عذابات الجسد الموجه وبسييل
الفيح من البثور على جلدك ، اركض يا عبدالله الفاضل ، اطلق
سافيك للريح !)

يسمع عبدالله الفاضل هسيس الرمل تحت قدميه الصافقين
للرمل ، يحس بكلبه يباى عنه فيقف ليلحق به شير ، يضع الكلب
على رقبته كالجدي الصغير ويركض .

يركن الكلب على رقبة عبدالله وينفث انفاسه الدافئة في فروة
راس صاحبه .

برى عبدالله الفاضل اول خيوط الفجر ، يحس بها تدخل الى
اعماقه كحسوة ماء بعد ظمأ طويل ، يفرح وتأخذه نشوة فيسدور
والكلب على رقبته راقصا يضرب الرمل بقدميه العاريتين ضرب راقص
ويستدير نحو الشمس التي تشر خيوطها الاولى ، يركض الى الامام
الى الاصوات التي تنبعث كالمشوق واللقاء في اعماقه .
يكاد يطير وقلبه يخفق في صدره كالحمامة التي تشق نحو
السماء عالياً عالياً .

تنقطع انفاسه فيتوقف عن الركض ويسير على مهل ، يرفع راسه
نحو الكلب ثم ينزله على الرمل ويسيران معا على مهل ، يقول عبدالله
الفاضل :

- احس بالنعب ، لولا ذلك لحملتك بعيداً . ويتسهم لنفسه ،
ثم يراقب الكلب الفارق في خيالات بعيدة .

تخرج الشمس راسها ، يراقب عبدالله الذنوبات الاولى ، يشعر
بالدفء بعد ليل بارد رهيب ، يركض نحو الشمس ، تنقطع انفاسه ،
يرمي بنفسه على الرمل ، يتمرغ فيه ويحشوه كطفل صغير بوجهه
الرياح الى السماء .

الكلب يطلع خلفه ، يقوم ويرتمي مرة اخرى ، ينضو ملباسه
ويحشو الرمل على الجسد ، على القروح ، على الظهر ، يشعر بسعادة
والرمل ينساب على ظهره ، يدغدغه ، يلتذ لانسياب الرمل على القفي ،
يلبس ثيابه ويشب عبائه في ساعديه ، يركض والعباءة كالشراع والكلب
يضلع ، يلتفت اليه ، يناديه .

- ا.ي . هو . . . وو . . .

يفتح ذراعيه للكلب الزهو الراكض رغم جراحاته خلف صاحبه ،
يقفي بين ذراعي صاحبه ثم يركض عبدالله الفاضل ، يتوقف ،
يتفحص الرمل والتراب والروابي البعيدة ، يقترب من كلبه ، ويهمس
بأذنه بسعادة طفولية :

(الناس . . الناس)

يهز الكلب راسه ،

- الناس ! الا تفهم ؟ . . . انهم هناك

ويرغمي كالبعير ، يتخذ مساره نحو الروابي ، يحس بالكلب
يعوقه عن التقدم الى امام والشمس تسطع ، ترتفع في الافق .

يضع الكلب على رقبته من جديد كالجدي الصغير ويركض يتأرجح
الكلب على كفه كطفل مدلل صغير ، سانه نخشخس يحس بالماء
يقترب وكانهما يسعيان الى بعض .

يتخيل الماء وهو ينورد على الصفتين ويخرج ساعيا في
الصحراء نحوه ، فيتلناه بالاحضان ، راقصا والجسد الجندور ينزع
عنه ظلامات المرض وفهر البثور المشونة كالعار في الجسد والحمى
المتفترسة في عظامه .

يسحق عبدالله الفاضل الهواجس ويركض وارجل الكلب تشد
أزره ، يشدها الى صدره ، يشعر بالظما يخشب بلعونه .

تقترب الروابي ويسمع عبدالله الاصوات :

(احقا هم الناس يا شير ؟)

يركض بعنف الحياة ، يشعر بالموءة للبشر تفمره حتى يشعمر
بذنه من الرغبة الى البشر .

روحه تفتز باللقاءات القريبة :

(ارى الوجوه الحلوة ، الندبة ، المليئة بالنخوة ، اسمع

يا شير ، حبيب قلبي ؟) .

تقترب الروابي ، يصعد عبدالله الفاضل بانفاسه المتلاصقة يشرف
على البعيد ، يرى امتداد السهب المليء بالعشب الاخضر ، ليس ثمة
بيوت ولا حيوانات ، طيور فقط تحلق على انخفاض فوق العشب .

يهبط عبدالله الفاضل من التلة الصغيرة ، يركض نحو العشب
يضع الكلب على الارض وينحس العشب بقدميه ، يرتوي على وجهه
ويشم رائحة العشب ، يحس بها تنفذ الى روحه ، تزهو روحه ،
يقتلع حزمة من العشب ويلوكها والكلب يتربع على العشب ، ينظر
الى صاحبه بفضول .

يحمل عبدالله الفاضل الكلب ويركض ، يركض كالغائب العائد
الى مضارب لاهله ، يستنحت اقدامه ويدعو قوى سحرية ان ترفعه
وترميه في مضارب قومه .

يركض نحو الماء ، يراه يلتهم تحت الشمس ، يصرخ :

- الخابو . . . ر !

يشق صوته عنان السماء ويعبر السهب والصفاف . يركض
ويحس بساقيه وكانهما يتخشبان بالنهر وكأنه يتنعد نحو اصقاع
بصيدة .

(الماء . . الماء . . النهر . . الخابور . . اه الخابور)

يركض . يزهو ، تبرعم روحه ، يفرس قدميه في التراب الندي ،
في طيف الصفاف ، يركض بشوق ، يشرف على الضفة ، ينيهر
بانسياب الماء والتماعة تحت شمس النهار .

يصرخ :

- الماء . . الماء !! الناس . . الناس !!

ثم يرتمي مع كلبه ويتعانقان مع الماء بعد غياب طويل .

واسط (العراق)

صدر حديثا عن دار الطبيعة

اليسار الفرويدي

ولهم رايش - جيزا روهايم -

هربرت ماركوز

تأليف أ. روينسون ترجمة : لطفي فطيم وشوقي جلال

- مراجعة وتقديم دكتور قدرى حفنى

يعتبر هذا الكتاب فريداً من نوعه حيث يربط بين
ثلاثة من عظام المفكرين في مدرسة التحليل النفسي على
اساس من موقفهم التقدمي من قضية الجنس ومن قضية
التقدم الاجتماعي .